تَجَلِّيَاتُ الحِوَارِ وَقُبُولُ الآخَر فِي الخِطَابِ الصُّوفِيِّ وتمظهراته فِي اِسْتِقْرَارِ مَنْظُومَة القَيِّمِ

قراءة معاصرة

The manifestations of dialogue and the acceptance of the other in the Sufi discourse and its appearance in the stability of the system of values Contemporary Reading

رعد حميد توفيق البياتي

كلية العلوم الإسلامية – الجامعة العراقية – العراق

ملخص:

يعد الخطاب الصوفي والروحي للأديان بصورة عامة السمة العامة لتلك الأديان وهدفها الاسمى الذي تسعى لإيجاده، قافزة فوق تلك السدود الاثنية والهوياتية أو العقدية التي ابتدعتها اما أهواء الكُتّاب أو المفسرين للنصوص المقدسة أو الرغبات المقصودة للمؤطرين للشرائع الدينية وجميع ذلك ابتعد بشي أو بآخر عن روح تلك الأديان وعن مراد الله في ذلك الا وهي العبودية له تعالى وتجسير الأخوة وإعمار الأرض دون قمع أو قتل أو تهجير من خلال التخادم الاقتصادي والديني والسياسي والاجتماعي ومن اجل ان يكون الدين وازع للتحضر والتقدم لا ان يكون أساس رمزي للقمع والتطرف وإلغاء الآخر.

كما ان الأمن والسلم الروحي هو الناهض الحقيقي بالحضارات، ولن تقوم حضارة ما لم تجمع بين المدنية والروح، أو التقنية والتقوى، والمادة والسلوك، فعليه تحتاج هذه الأمة إلى تطبيق جاد للتصوف وتجديد لخطابه الصوفي المعتدل وتحتاج إلى تربية ربانية روحية ترنو إلى الإحسان وتدعو إلى الفضيلة وترك الرذيلة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الصوفي، منظومة القيم، التربية الروحية، السلم المجتمعي، الأخلاق الدينية

Summary:

The mystical and spiritual discourse of religions in general is the general feature of those religions and their supreme goal that they seek to find, leaping over those ethnic, identity or dogmatic barriers that were created by either the whims of the writers or interpreters of sacred texts or the intended desires of those who framed religious laws. On the authority of God in that, namely slavery to Him, the Almighty, bridging brotherhood and rebuilding the land without suppression, killing, or displacement through economic, religious, political and social encroachment, in order for religion to be a tendency for civilization and progress, not to be a symbolic basis for oppression, extremism and the abolition of the other.

Just as spiritual security and peace is the true riser of civilizations, and a civilization will not arise unless it combines civilization and spirit, or technology and piety, matter and behavior, so this ummah needs a serious application of Sufism and a renewal of his moderate Sufi rhetoric and needs a spiritual divine education that aspires to charity and calls for virtue. And let go of the underworld.

Key words: mystic discourse, value system, spiritual education, community peace religious ethics

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم...وبعد.

يعد الخطاب الصوفي والروحي للأديان بصورة عامة السمة العامة لتلك الاديان وهدفها الاسمى الذي تسعى لإيجاده، قافزة فوق تلك السدود الاثنية والهوياتية أو العقدية التي ابتدعتها اما اهواء الكُتّاب أو المفسرين للنصوص المقدسة أو الرغبات المقصودة للمؤطرين للشرائع الدينية وجميع ذلك ابتعد بشي أو بآخر عن روح تلك الاديان وعن مراد الله في ذلك الا وهي العبودية له تعالى وتجسير الاخوة واعمار الارض دون قمع أو قتل أو تهجير من خلال التخادم الاقتصادي والديني والسياسي والاجتماعي ومن اجل ان يكون الدين وازع للتحضر والتقدم لا ان يكون اساس رمزي للقمع والتطرف والغاء الآخر.

ان القيم الروحية المبثوثة في الخطاب الصوفي قادر علي صقل الانسان ومنحه طاقات لا حد لها من أجل الخير والحق والمحبة, وان السعي في التنافس وتعارض المصالح وتصادم الرغبات وصراع الحضارات، من شأنه ان يجعل الحياة صراعا قاسيا رهيبا لولا عناية الله الذي أنزل القران هدى ورحمة للناس.

وعليه فان الامن والسلم الروحي هو الناهض الحقيقي بالحضارات، ولن تقوم حضارة ما لم تجمع بين المدنية والروح، أو التقنية والتقوى، والمادة والسلوك، فعليه تحتاج هذه الامة إلى تطبيق جاد للتصوف وتجديد لخطابه الصوفي المعتدل وتحتاج إلى تربية ربانية روحية ترنو إلى الاحسان وتدعو إلى الفضيلة وترك الرذيلة.

ثم ان السلام مع الذات والامن الروحي، والذي هو في الحقيقة هدف مرحلي للتصوف، لن يتأتى دون معرفة الذات ومعالجة امراض الروح وهو مما لا تستطيعه جميع جيوش العالم وسياساتها معالجته ما لم نجد في ذلك علماء ربانيين يداوون القلوب وينقون الارواح بخطاب متعمق للنفس والذات البشرية.

وعليه تكون **مشكلة البحث**: من خلال تساؤلات عدة يطرحها الباحث:

1. هل يسع الخطاب الصوفي أن يقوم بدور إيجابي فاعل في إنقاذ المجتمع الإنساني من الأنا المتضخمة، والحدّ من ظاهرة العنف والتطرف ونشر ثقافة السلام العالمي؟

2. هل يمكن للخطاب الصوفي أن يشكل منطلقًا عقائديًّا علميًّا عمليًّا تأسيسيًا يساعد على الخروج من نفق الهويات المغلقة، ومن كهوف الإيديولوجيات الدينية الميتة والمميتة التي تعاني منها البشرية في الوقت الراهن للوصول إلى مشترك انساني اسمى؟.

منهجية البحث: ونظرا لطبيعة هذه الدراسة المتشعبة ، فإن المنهج الذي سرت عليه هو مزيج من المنهج التاريخي الذي يعتمد على استرداد الأحداث التاريخية ، والمنهج الوصفي الذي يرصد هذه الأحداث ويصفها ، ثم المنهج التحليلي النقدي الذي

يحاول معرفة العلاقات بين الظواهر ، وتقييم النصوص والمؤلفات موضوع الدراسة . فبحسب طبيعة القضية المدروسة كان يتم اختياري لما يناسب من المناهج .

اهمية البحث: تنبع اهمية البحث من اهمية الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه وهو بيان الصلة الكبيرة بين مجتمعاتنا الإسلامية والتربية الروحية وما يمكن ان تحققه على الواقع ، من امن وسلام وإخاء، ونظرتهم المتسامحة مع المخالفين لنا دون المحاربين، ونظرتهم المتسامحة مع المخالفين لنا دون المحاربين.

أهداف البحث: تتحدد أهداف بحثنا حول:

1. الإنسان قيمة عليا في التصوف الإسلامي، ولا قيام لدولة مستقرة أو لحضارة صاعدة سوى بإعلاء مكانته ورفعته كأفضل من خطى على هذه البسيطة.
2. التصوف منهج إسلامي اصلي في التعامل مع العقبات الاجتماعية والأمنية والدولية، ولا بد من التمثل بتعاليمه للوصول إلى مجتمع مسالم يسوده الإخاء والتعاون.
3. لن تقوم حضارة ما لم تجمع بين المدنية والروح أو التقنية والتقوى أو المادة والسلوك.

هيكلية البحث:

وقسمت بحثي على مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة:

المطلب الأول: مصطلح الخطاب الصوفي وعلاقته بالقيم الانسانية

المطلب الثاني:أثر الخطاب الصوفي في تطهير القلوب وضبط السلوك

المطلب الثالث:تجليات الخطاب الصوفي على سلوك الفرد والمجتمع

المطلب الرابع:اثر الخطاب الصوفي على السلم المجتمعي ومنظومة القيم

المطلب الخامس : القيم الاسلامية للخطاب الصوفي في مواجهة التعصب والتطرف

المطلب الأول: مصطلح الخطاب الصوفي وعلاقته بالقيم الإنسانية

التصوف: هو غيبة الخلق في شهود الحق، وهنا لا نعني بالتصوف إلا ذلك المستبطن الروحاني الموجود في الإنسان، وهو يتشكل واقعا في تجربة تصطدم مع الوجود في تدافع مستمر، لتحقيق الذات ووجودَها، وترسيخ حضورها، وإظهار كونها لطفا إلهيا في الزمان والمكان، وجوهرا ساميا يحلق إلى مستوى عال يجعلها نسمة من لطفه وكرمه المتلألئ في الكون عدما ووجودا، ونفحة موضوعة لتحقيق المحو في المطلق بصحو حاضر في ماهية الوجود عبادة وطاعة، وفي الحضرة الإلهية عشقا ووجدا، فيكون التصوف في محصلته، تلك العاطفة الدينية في بهائها ونقائها، وتلك المعاني في جمالها وكمالها، وهي تكتشف ذلك البعد المتعالي في الإنسان، وتمهد الطريق للمريد والمسترشد دليلا لأن يصل إلى إنسان كامل يتمتع بلذة المشاهدة لهذا الكون على ما هو عليه واقعا لا خيالا، ولأن يعيش لحظة التوهج في ذاته وحياته وهو لا يرى سوى الله في حركاته وسكناته، أو هو، تلك التجربة الفردانية في الغالب، أو الجماعية المتكونة من هذا اللقاء، فيما بين الإنسان وربه، وفيما بين الإنسان وكونه، وفيما بين الإنسان وحياته بجميع علاقاتها وارتباطاتها وتفاصيلها.

إنّ مصطلح الخطاب الصوفي عند المسلمين بشكل عام وعند الصوفية بشكل خاص يعني رسائل تهذيب الروح وقمع شهوات النفس وذلك باقتلاع جميع الصفات الأخلاقية المذمومة الكامنة فيها وإخلاءها منها ، واستبدالها بغرس جميع الصفات والفضائل الأخلاقية المحمودة شرعا وتحليتها بها. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1]

فمهمّة التربية عموما هي تجريد الروح من الرذائل الخُلقية وتزويدها بالفضائل الأخلاقية.

هذا المعنى للخطاب الصوفي وما يمثله من تربية روحية يمثّل القاسم المشترك الأعظم بين جميع أهل التربية في العالم المتحضر، وجميع الشعوب التي تروم تطهير نفوس شعوبها للوصول إلى حالة من الرقي الروحي والاخلاقي والسلوكي من اجل مجتمع مستقر ايدلوجيا وفكريا وسياسيا، وهو مطلب جميع التوجهات الدينية والفلسفية، وكلّ دين أو مذهب اخلاقي له منهجه وأسلوبه الخاصّ في تحقيق هذا الهدف المشترك بين جميع أهل الأديان السماوية والمذاهب الإصلاحية[2].

ان القيم الروحية الانسانية قادرة علي صقل الانسان ومنحه طاقات لا حد لها من أجل الخير والحق والمحبة, وان السعي في سبيل الرزق والتنافس وتعارض المصالح وتصادم الرغبات، من شأنه ان يجعل الحياة صراعا قاسيا رهيبا لولا عناية الله الذي أنزل الأديان هدى ورحمة للناس بما فيها من حث متواصل على التراحم والتعاطف واشاعة الخير, وحب الغير, وحسن الجوار وكرم الصحبة, واحترام حقوق الانسان, وحسن معاملة الناس والتسامح معهم والصفح عن زلاتهم، فالقيم الإنسانية بهذه الصورة تخفف حدة الصراع في الحياة الدنيا, تنظم المعاملة بين الناس والعلاقات الانسانية.

ولأهمية هذا الجانب التوجيهي للخطاب الصوفي اعتمده جميع المجددين كالإمام النورسي في رؤيته في انبعاث الايمان والشيخ عبد القادر الجيلاني (رحمهما الله) في كتابة الفتح الرباني وغيرهم من الدعاة والمصلحين والمربين واصحاب التربية

والسلوك ممن اسهموا في اعادة المسلمين إلى مسار الاسلام النقي الصافي ، وكان داعيهم في ذلك هو الحرص والاسهام في اخراج جيل واعي نقي القلب والجوارح يؤمن ببناء الروح ومدى فاعليتها وما يمكن ان تفعله في بناء المجتمعات والشعوب.

وسنعرض في المطالب اللاحقة الادلة التي تهيء لبروز القيم وتعزز منظومتها التوجيهية للمجتمعات، كجانبٍ فاعل من حياة المسلم، والانسانية بصورة اعم، فهو محرك لوجدان الامة وينبغي ان يؤطر ويوضع في منهجية نابعة من طبيعته ولا يقحم فيها اقحاماً، بل لا يلحق بغيره الحاقاً لأنه قائم بذاته في مجاله ومحيطه.

ويكشف الباحث الاختلاط في الفهم بين الخطاب الصوفي كمنهجية لها دورها الفاعل في حياة المجتمع الانساني، وتزكية النفس التي تتناول جوانب سلوكية، لتطهير النفس وتخليصها من عيوبها ناهيك عن الالتباس الحاصل في فهم الناس بين الخطاب الصوفي الروحي في الاسلام مقارنة مع الاديان السماوية الاخرى، والتعاليم الكثيرة التي تعج بها فلسفات الاديان الشرقية والغربية القديمة والمعاصرة.

وهنا نعط مثالا واحدا لذلك الخطاب المعتدل والتسامح والتواصل الديني عند الصوفية ما قام به الصوفي الكبير الأمير عبد القادر الجزائري عندما أنقذ ما يربو على خمسة عشر ألف مسيحي من القتل في الفتنة التي اشتعلت في دمشق بين الدروز والنصارى سنة 1860م، ووقف متحديًا جموعًا هائجةً مندفعةً لقتلهم ودوى بصوته قائلًا: (نّ الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجلّ وأقدّس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات بذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم... أحذركم من أن تجعلوا لسلطان الجهل عليكم نصيبًا، أو يكون له على نفوسكم سبيلاً)[3].

وبعد تلك الحادثة الخطيرة يكاتب أسقف الجزائر بافي Louis-Antoine-AugustinPavy الأمير عبد القادر الجزائري (رحمه الله) شاكرًا له صنيعه فيجيبه الأمير برسالة يقول له فيها ما خلاصته "ما فعلناه من خير للمسيحيين، ما هو إلاّ تطبيق لشرع الإسلام واحترام لحقوق الإنسان، لأنّ كل الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. إنّ كل الأديان من آدم إلى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين: تعظيم الله جل جلاله والرحمة بمخلوقاته، وما عدا هذا ففرعيات ليست بذات أهمية كبيرة، والشريعة المحمدية، من بين كل الشرائع، هي التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة وكل ما يعزز التآلف وينبذ التخالف، لكن المنتسبين للدين المحمدي ضيعّوه فأضلهم الله، فجزاؤهم من جنس عملهم"[4].

المطلب الثاني: أثر الخطاب الصوفي في تطهير القلوب وضبط السلوك

أصل الإيمان، به يدخل العبد في الإسلام، وبه يكون اعتبار سائر الأعمال، وبصلاح ما في القلب أو فساده يكون صلاح الأعمال أو فسادها، ما قاله صلى الله عليه وسلم :"...ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب "[5]، "فأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد"[6].

فالتصديق: هو قول القلب، وهو المعرفة والإثبات لما دلت عليه الشهادتان. والحب: عمل القلب نحو المشهود لهما، وهو الله تبارك وتعالى في شهادة أن لا إله إلا الله، ومحمد بن عبد الله في شهادة أن محمداً رسول الله، فيحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه[7]، وهذا اشارة إلى قمة البعد الروحي للإيمان الذي يتجلى في الخطاب الصوفي المتكئ على معاني الحوار والاعتدال وقبول الاخر، بوصفه وازع انجع للتربية ومعالجة اخفاقات الامم الاجتماعية والسلوكية.

والانقياد: عمل القلب أيضاً، وهو القبول وعقد العزم على الامتثال لما دلت عليه الشهادتان. وبناء على ما تقدم يتبين أن أصل الإيمان ينعقد بثلاثة أمور:

الأول: النطق بالشهادتين.

الثاني: قول القلب وهو العلم والتصديق بمعناهما، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما أخبر به عن الله.

الثالث: عمل القلب، وهو قبول التوحيد والبراءة من ضده، والمحبة لله ولرسوله ولدينه، والعزم على الانقياد لهما.

فإذا جاء العبد بأصل الإيمان وتطهير النفس من درن الذنوب فهو مأمور مكلف بتكميل إيمانه، ليس له أمن في الحياة الدنيا ولا في الآخرة إلا بذلك، فإذا امتثل العبد الطاعات، واجتنب المحرمات، فقد استكمل عرى الإيمان الواجب، وأصبح في مرتبة المقتصد.

وإذا جاء العبد بأصل الإيمان والصلاة وبعض الطاعات، لكن عصى الله بالإخلال ببعض الطاعات، أو فعل بعض المحرمات، كان إيمانه ناقصاً بقدر مخالفته، ولا يستحق اسم الإيمان المطلق، بل هو في مرتبة الظالم لنفسه الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

قال ابن كثير –رحمه الله–: " فمنهم ظالم لنفسه وهو المفرِّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات"[8].

فالظالم لنفسه: هو الذي جاء بأصل الإيمان صحيحاً، وأدى الصلاة، ولكن ظلم نفسه بأن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومات وهو مصرّ على بعض الكبائر، ولم تبلغ كبيرته الكفر.

وتُسمى مرتبة الظالم لنفسه، ويُسمى من كان من أهلها: مرتكب الكبيرة، أو الفاسق الملي، أو المسلم الظالم لنفسه.

وأهل هذه المرتبة عندهم من الإيمان المجمل ما كانوا به مسلمين، وإن ماتوا عليه دخلوا الجنة، لكن لم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم ومراتبه العلا، وليس عندهم من المعرفة بالله ورسوله وبدينه ما يوجب لهم رسوخ الإيمان وقوة اليقين الذي يحصنهم ضد الشبهات المضللة، ويخمد الشهوات المحرمة، إلا أن يشاء الله لهم ذلك ويهيئ لهم أسبابه، إيماناً لا يثبت على المحنة.ولهذا يكثر من هؤلاء ترك الفرائض، وانتهاك المحرمات"[9].

وهؤلاء في عداد المسلمين، تجري عليهم أحكامهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، لكنهم على خطر -إذا لم يتوبوا من ظلمهم ويكملوا إيمانهم- من أمرين:

الأول: أن تتسلط عليهم شياطين الإنس والجن -بسبب ظلمهم- فتستدرجهم بالشهوات والشبهات إلى الكفر أو النفاق، فينحرفوا عن الطريق المستقيم الذي اراده الله لعباده المسلمين، فيكونون عناصر ضالة في مجتمعاتهم وعوامل هدم لبيئتهم ودولهم.

الثاني: تعرضهم للعقوبات في الدنيا والآخرة.

وهؤلاء خلاف الذي كان استشعار قلوبهم لعبودية ربهم، وفقرهم وحاجتهم إليه، ولحقيقة الألوهية وعظمة الخالق، وعمرانها بمحبته، وخشيته وتعظيمه، أعظم باعث لهم على الأنس بالله، وإيثار مرضاته، والاشتغال بما يقربهم منه، ويحببهم إليه عن الاشتغال بفضول حظوظ النفس، فزهدوا فيما لا يحتاجون إليه من المباحات، واطمأنت قلوبهم بطاعة الله، وآنست نفوسهم، وذلت ألسنتهم لذكره، وخضعت جوارحهم لاتباع شرعه، فذاقوا من حلاوة الإيمان ما حملهم على تقديم أرواحهم وأموالهم وقواتهم وأوقاتهم في سبيل الله، بالجهاد أو المرابطة أو التعليم، أو الدعوة والنصح للمسلمين خاصتهم وعامتهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم السادة الصوفية كما يعرف طريقهم ابن خلدون "رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة، بالوقوف عند حدوده مقدّمًا الاهتمام بأفعال القلوب"[10]، أو غير ذلك من الأمور التي فيها مرضاة الرب، ومنفعة الخلق، فهم أولياء الله وخاصته وصفوته من خلقه، فيكونوا بذلك عوامل تماسك وضبط لشعوبهم وبيئتهم ودولهم وبهم تقام الانجازات وترتقي المجتمعات.

أما الظالم لنفسه فهو المؤمن الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية، وهذه المرتبة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: من يرد يوم القيامة وقد كفّر عنه السيئات كلها، إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا، أو عذاب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب، وعمل الثواب عمله، فهذا أعلى مرتبة الظالم لنفسه.

القسم الثاني: من ورد يوم القيامة وعليه سيئات، فهذا توزن حسناته وسيئاته، ثم هم بعد ذلك ثلاثة أنواع:

أحدها: من ترجح حسناته على سيئاته، فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله، وبحسناته وهي من رحمة الله.

ثانيهما: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فهؤلاء أصحاب الأعراف، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار، يكونون عليه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة.

ثالثهما: من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع من شفاعة أحد من أقاربه، أو معارفه ممن جعل الله لهم في يوم القيامة شفاعة، لعلوّ مقاماتهم عند الله وكرامتهم عليه، أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما ذكرت ذلك بعض الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم[11].

فما أحوج المسلمين في هذا العصر إلى الالتزام بالإيمان وبعده الروحي المبتني على خطابات القلب وبناه الروحية مبتعدين عن الميلات الفكرية والعقدية، الخطاب الذي هو السبب في تحصيل ولاية الله من خلال تجلياته في سلوك الافراد والمجتمعات مهتدين بذلك بسلف هذه الامة من آل بيت النبوة الاطهار وصحابته الاخيار، فيهدي الله قلوبهم ويثبتهم على الصراط المستقيم، ويصلح أحوالهم، ويلهمهم رشدهم، ويبصرهم بما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

المطلب الثالث: تجليات الخطاب الصوفي على سلوك الفرد والمجتمع

مما لا شك فيه ان كل إنسان يحمل في قلبه عقائد ومفاهيم تخصه عن مختلف القضايا التي يتوجه إليها اهتمام الناس، استقى هذه المعلومات من مصادر مختلفة أهمها: كتب ورجال ملته، وعن طريق والديه ومجتمعه، كما أن للقصص والأساطير التي غالباً ما تنتشر بين الناس أثراً في تكوين ذلك، وفي وقتنا الحاضر يحتل الخطاب التوجيهي مكانة عظيمة كموجه ومؤثر على الفكر والتربية، وتكوين العقائد والمفاهيم، وعلى هذا فالخطوة الأولى التي يعتني بها الإسلام هي تنقية وتطهير قلوب معتنقيه، من العقائد والظنون السيئة الموروثة لديهم فضلا عن ترسيخ منظومة رصينة من القيم الانسانية والروحية المعتدلة، لان من المهم على السائر في هذا الدرب ان ينقي القلب قبل ان يظهر عليه اثار الايمان ولأنه يجب التخلية مما سوى الله ثم التحلية بما أراده الله تعالى.

ويتم ذلك جميعا باستشعار نظر الله اليه ويكون ذلك بتربية الروح وتنقية القلب بتعليمهم الحق، وبيان الباطل ودحضه في جميع المطالب الأساسية التي تشتاق قلوب العباد لمعرفتها، والتي لا بد منها لحصول الهداية للبشر، كمعرفة الخالق تبارك وتعالى، وأصل الإنسان، ودوره في الحياة، والحكمة من خلقه، ومصيره وما يكون بعد الموت، وحق خالقه عليه، وغير ذلك من الأمور الغيبية: كالملائكة، والكتب المنزلة، ورسل الله إلى البشر، واليوم الآخر، والقدر، وبهذه الشهادات وغيرها، استقراءً لمصادر الإسلام وحفرًا في نصوصه يكون التصوف في معناه الأبعد يمثل عمق الإسلام وجوهره، أو هو التحقق بمقام الربانية القرآني ﴿لَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[12].

ومن أجل ترسيخ هذه المفاهيم المصلحة للقلب، لا بد من تطهيره من ضدها، قال ابن القيم رحمه الله:" قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان موضع القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة، لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع"[13]، وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[14].

فقدم سبحانه الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تنبيهاً إلى وجوب تخلية القلب من الضد، فلا يصح إيمان بالله وإيمان بشيء من الطواغيت، كما لا يكفي براءة من الطاغوت بدون إيمان بالله، فلا بد من تطهير تصاحبه تزكية.

فعوائق رفع الخلاف وتحقيق الأخوة الظاهرة والباطنة بين المذاهب والاديان وكافة المجموعات العقائدية يتحدد في عدم إصغاء بعضهم لبعض، وفي سوء فهم بعضهم بعضًا، وفي غياب الصدق في طلب الحق مع بعضهم بعضًا، هذا من ناحية الأساليب وطرق التفاهم، أما من ناحية المضامين والمحتويات ،وبالرجوع إلى ما كتبه الأمير عبد القادر الجزائري خاصة في كتابه المواقف 1314هـ، يتأكد لدينا أنّه يشير ويقصد في نصه بفهم لسانه وبطريق الحق نظريته في التجلي الروحي للحوار وقبول الاخر وأسرارهما[15].

وهكذا في جميع المطالب الإلهية فإنه يجب على المسلم أن يتبرأ من الباطل فور انكشافه له، ويلتزم الحق.

والمؤثر الأهم في تحقيق هذا المطلب هو العلم المستقى من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم أن العلم هو المؤسس والمغذي –بإذن الله– للعقائد والعواطف، وعلى هذا فلا يتصور إيمان بلا علم، ذلك أن الإيمان هو علم صدقه القلب وقبله وانقاد لموجبه، إلا أنه قد يوجد علم بلا إيمان.

إلا أنّ الساحة الإسلامية لم تخل –والحمد لله– من القائمين بدين الله الداعين إلى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وسلف الأمة الصالح، مبتدئين بالدعوة إلى تطهير الاعتقاد، وتطهير الفكر والسلوك، وكل ما أدى إليه أو نتج عنه، ملتزمين بأخذ العلوم من منابعها الصافية، من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفهم السلف الصالح مقتفين أثرهم في العبادات والسلوك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقد بارك الله في جهودهم –وله الحمد والمنة– فلهم علماؤهم وكتبهم المنشورة، ومجلاتهم السائرة، ودعاتهم الظاهرون، ومدارسهم وجامعاتهم المعروفة، ومحافلهم العامرة، وهم بخير وإلى خير –إن شاء الله.

وخلاصة هذا المطلب: إنّ الأثر الأول للتربية الروحية ونتاجها هو تطهير القلوب من الاعتقادات الباطلة، وما ينتج عنها من الظنون الرديّة المرْدِية.وهو:

1. إنّ ذلك يكون بالعلم بالله وبحقه ودراسة ذلك من خلال البيان الوارد في الكتاب والسنة، وفق منهج السلف الصالح ، وإنّ المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى هذا الأثر، وإنّه يكون بتبني العلماء العاملين والدعاة على مستوى الأفراد والجماعات .

2. ويكون بالتربية على المعاني الطيبة والأخلاق الحميدة عن طريق المداومة على صحبة الصالحين والعلماء العاملين.

المطلب الرابع: اثر الخطاب الصوفي على السلم المجتمعي ومنظومة القيم

إن مظاهر ولاية الله لعبده المؤمن كثيرة، فهو سبحانه يحوطه بعنايته، ورعايته في كل المجالات، والغرض هنا هو ذكر بعض المظاهر الواردة في النصوص في مجال حفظ الله لعبده من الوقوع في الأفكار الهدامة وخروجه عن السلوك القويم وأسبابها التي تبتعد به عن الصراط القويم.

إن مظاهر ولاية الله للمؤمنين في مجال إخراجهم من الظلمات وهدايتهم للنور يكون بأمرين:

الأول: العلم المزيل للجهل، ويشمل العلم بحقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحججه، كما يشمل العلم بسبل الضلال الذي يجعل المسلم حذراً منها[16]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[17]، فالله –سبحانه– متولي أمور المؤمنين يوفقهم إلى الخروج من الظلمات ويُمدهم في الهداية، بإعانته لهم على استعمال ما أودعه فيهم من الحواس والعقل في التفكر في آيات الله الكونية والتدبر لآياته التنزيلية، فتستنير قلوبهم، ويرسخ إيمانهم لتظافر الأدلة ووضوحها وإدراك القلوب لها، وتزيد معارفهم بتفاصيل الحق، وما يضاده من طرق الضلال، فكلما عرضت لهم شبهة أو شهوة لاح لهم –من عناية الله بهم– أمر مما استقر في قلوبهم من ذلك، أو مما يفتح به عليهم، يتضح لهم به زيف الشبهة، ويطفئ نار الشهوة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[18].

أما الذين كفروا فإن الله يتخلى عنهم ويخذلهم، فتتلقفهم طواغيت الجن والإنس يتلاعبون بعقولهم وقلوبهم، ويركسونهم في الباطل، ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[19].

الثاني: تطهير القلوب من الشكوك، ودواعي الكفر الساترة لأبصار القلوب: فالقلوب تصح وتمرض.

وأساس صحتها وحياتها هو الإيمان الصحيح، دون افراط أو تفريط بعيدا عن الغلو والغاء الاخر وانكار الاخر، القائم على العلم الصحيح المستمد من الوحي، وعلى الإخلاص، وما ينتج عن ذلك من العمل الصالح، ومرض القلب في مقابل ذلك هو الدافع إلى الكفر والنفاق والمعاصي، وهداية الله للمؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، يلزم منها تطهير قلوبهم من الدوافع الجانحة.

إلا أن إخراج الله عباده المؤمنين من الظلمات إلى النور لا يقف عند هذين الأمرين ، بل إنه سبحانه يهيئ لهم من لطفه

بهم، أسباباً تصرفهم عن كل ظلمة تكون في طريقهم، أو تصرفها عنهم، وبذلك يكون هذا الأثر عاماً في كل سبب يؤدي إلى خلاص المؤمن من أفكار الجاهلية وخصائصها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[20]، وفضلا عن ذلك تثبيت المؤمن عند الشدائد، والشدائد هي النوازل والأمور المضرة التي يشتد وقعها على المؤمن، وقد تضعف نفسه عن تحملها ومقاومتها، ويُخشى عليه فيها أن تزل قدمه فتصدر منه أعمال أو أقوال، أو ظنون ترديه في دينه أو دنياه.

ولا شك أن من أعظم الشدائد التي عاناها المسلمون في مختلف عصورهم هي جهود أعدائهم من محاولة فتنتهم بمختلف الوسائل ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[21]، ومن ذلك الوسائل الفكرية التي تهدف إلى التأثير على السلوك، وزعزعة العقائد بالفكر الخبيث، والتي اشتد وقعها في القرون المتأخرة، حيث عمت المصيبة في الدين، ونجم النفاق، وانتشرت أسباب الفساد، وارتفعت أصوات الناعقين بالكفر، والشبهات والتلبيسات، وتسلط الأعداء على المسلمين وظهروا عليهم، أو ما بات يعرف بتكفير المخالفين من صوفية أو ممكن يتلمسون البركة في القبول من المذاهب الاسلامية.

فالله تعالى يتولى عبده المؤمن في مثل هذه الأحوال، فيثبته ويربط على قلبه، ويهديه ويهيئ له من الأسباب ما يعينه على الخلاص منها، مستلهمين الحق في ذلك من خلال الخطاب المعتدل والصحيح الذي جاء به القران الكريم والسنة المطهرة والسلف الصالح.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[22].

كما ان مفهوم التضحية بالذات وانكار الانا الذي امتاز به كثير من الصحابة ومن بعدهم يعد من مظاهر التربية الروحية التي لا يمكن التغاضي عنها ولا غض الطرف عن رؤيتها، وإن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبًا ولا منصبًا ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم يتصارعون على الزعامة والقيادة[23].

إن لكل مجتمع إنساني خصائص تميزه عن غيره، وروابط تشد بين أفراده، ومقومات تحكم تعاملهم مع بعضهم ومع غيرهم في المجتمعات الأخرى، ويتوقف على حظ المقومات والروابط من الصلاح والتناسق، قوة المجتمع وصلاحه من عدمها، وهذه المجتمعات استقرت وتحصنت من خلال نوع الخطاب الذي يوجهه ويسلك بالمجتمعات المسالك.

وقد وردت تعاريف كثيرة لمصطلح المجتمع الإنساني، وكل من هذه التعاريف يتناول جانباً من جوانب المجتمع وخواصه الرئيسة كالعلاقات الاجتماعية، أو النظم والضوابط السلوكية، أو التجمع والتفاعل الإنساني، أو البقعة الجغرافية التي

يعيش عليها الأفراد والجماعات، أو اللغة والتاريخ أو العادات والتقاليد والأهداف المشتركة التي يؤمن بها أبناؤه، ورابطة الدم والعقيدة هي أقوى الروابط التي يجتمع عليها أفراد المجتمعات الإنسانية، أما الوطن فهو البقعة الجغرافية التي تقيم عليها تلك الجماعة ويشكل الحنين والولاء له رابطة تشد أبناء الوطن بعضهم إلى بعض، كما أن المصالح المشتركة تكون في كثير من الأحيان رابطة يجتمع عليها الناس.

ويعد المجتمع متماسكاً قوياً إذا كانت الرابطة بين أفراده قوية والتزامهم بها شعوراً وولاء قوياً وهذا الرابط يتعزز من خلال القيم الدينية التي تربطه

لكن تماسك المجتمع وقوته لا تعني أنه يسير على الحق والهدى والصراط المستقيم، ذلك أن القوة غير الهداية وإنما تمام الأمر أن تقترن القوة بالهداية، فتكون القوة مجندة لنشر الحق والدفاع عنه، والحق موجهاً للقوة.

وعلى هذا فالمجتمع السليم المهتدي هو الذي يسير على الهدى الذي جاء به الوحي المطهر النازل على أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ذلك المجتمع هو: الذي ربط بين أعضائه رباط الإيمان ويشدهم التوحيد والشعور بالانتماء إليه، وبمسئولية نشره والدفاع عنه، وقَوِيَ ولاؤهم جميعاً له، واتّحدت أهدافهم التي يؤمّلونها في الدنيا والآخرة، وحُكِموا جميعاً بنظامه وشرعه، وتعاملوا بأخلاقه والحقوق التي أوجبها لكل منهم.

ولذلك فإن الرابطة الروحية التي دعا اليه الصوفية من خلال خطاباتهم الموحدة للصف والمرسخة للقيم والاسس الاسلامية ، هي أهم الأسس التي يقوم عليها المجتمع المسلم، وبالتالي فهي أهم وأقوى الحصون التي تحصن المجتمع من كيد أعدائه وأفكارهم المسمومة، وتخطيطاتهم الخبيثة.

وبهذا يكون الإسلام قد أبطل جميع الاعتبارات –غير رابطة الأخوة الإيمانية– أن تتخذ رابطة ولاء كرابطة ولاء وأخوة وتناصر، وأبقاها روابط تعارف وتراحم، تعتبر في الأنساب وبعض الأحكام الشرعية كالدية التي تكون على العاقلة، وولايات التزويج، والميراث ونحو ذلك.

إنه يجعل تلك الأخوة علاقة حقيقية تزيد على علاقة الدم والنسب، وتفضلها، وقد كان الإسلام بذلك أول من أقام مجتمعاً على أساس رابطة روحية يجعل لها الاعتبار الأول، ويعتمد عليها في تقرير الحقوق والواجبات. إن بين المؤمنين رباطاً روحياً يتمثل في إيمانهم بإله واحد، واعتقادهم بغاية واحدة للحياة ومصير واحد، ومن أجل ذلك فهم أخوة... هكذا يقرر القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[24].

وهذا الرباط من القوة والأصالة بحيث جُعل أساساً يتجمع حوله المسلمون دون اعتبار لما تواضع عليه البشر أزماناً طويلة، فلا اعتبار –في المجتمع الإسلامي– للنسب وشرفه، فقد وضع الإسلام عن الناس وزر التفاخر بالأنساب والتعصب لها...

ولا اعتبار للجنس، فالإسلام يرفض أن يفترق الناس أجناساً مختلفة، وأن تفصل بينهم فواصل من صنع أيديهم.

ولهذا فقد احتضن المجتمع الإسلامي أول المسلمين من كل جنس، ولم يجد الحبشي أو الفارسي أو الرومي حائلاً يمنعهم من الانتساب لهذا المجتمع، بل والتصدر فيه.

وقد كانت الأخوة نوعاً جديداً من العلاقات لم يعهده المجتمع العربي قبل الإسلام، إذ كان ذلك المجتمع يقوم على رباط النسب والجنس، فجاء الإسلام ليجعل الترابط في مجتمعه على ذلك الأساس الروحي والفكري من وحدة العقيدة ووحدة الغاية، متخطياً في ذلك الروابط التي تحمل في طيّاتها عوامل التفكك وبذور الانهيار..."[25].

وقد قرر الله هذه الرابطة والأخوة الإيمانية بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[26]، قال ابن كثير رحمه الله: "أي الجميع إخوة في الدين"[27].

والأخوة من مدلولها معنى التقارب والمحبة والتراحم، والتعاون وإذا كانت الرابطة الإيمانية هي الأساس للوحدة الإسلامية، وكانت الوحدة حصناً قوياً للمجتمع من كل فكر دخيل هدام، وسلوك منحرف، فإن الفرقة والنزاع الناتج عن ضعف أو انعكاس الرابطة الإيمانية بين أفراد المجتمع المسلم يمثل ثغرة خطيرة تسهم وبسرعة في تفككه وضعفه، ومن ثم حصول الشر بين أفراده. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [28].

ومردّ التنازع بالدرجة الأولى إلى الفرقة في الدين الناتجة عن الانحراف في العقيدة، أو الابتداع في الشريعة، وكم خطط أعداء الإسلام للتفريق بين المسلمين، ولم يجدوا أنجح في تحقيق ذلك من نشر الأفكار المخالفة، فكلما وجدوا ثغرة في المجتمع الإسلامي أطلقوا فكرة ضالة جللوها بتلبيسات مزخرفة، فاستهوت بعض أفراد المجتمع ومالت بهم عن الجادة، وهكذا حتى تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً وطرقاً.

ولم يقف الأمر عند ذلك، بل أوجدوا أفكاراً تهدف إلى إزالة الرابطة الإيمانية والأخوة الدينية من أساسها، وتدعو إلى الاجتماع والاتحاد على رابطة أخرى كالشعوبية الداعية إلى التعصب للدم والعرق، ومثلها القومية، والوطنية، والوجودية، والإنسانية أو الدعوة إلى التآخي على الرياضة والفنون أو غير ذلك من الروابط.

وبذلك يقل الولاء للدين، ويخفّ الحماس لنشره والدفاع عنه، وهذا انتصار للكفر بحرب باردة يذوب فيها شباب المجتمع ورجاله الذين هم جيش الإسلام وعدته تحت ألوان من الأفكار والدعوات المضللة، والولاءات المختلفة.

وبعد البيان لأهمية الرابطة الروحية لقوة المجتمع المسلم ووحدته وحصانته من الأفكار الهدامة، وأثر ضعف تلك الرابطة في تفككه وحدوث الثغرات التي يتسلل منها كل فكر خبيث ومبدأ هدام، تبين لنا ان من الأهمية بنا في هذا المجال ان نستشعر أهمية الشعور الإيمانية في توحيد الأمم وتقويم السلوك الانساني ان كان العبد عربياً أو اعجمياً أو اسوداً أو ابيضاً.

اذ من المعروف عند المشتغلين بعلم النفس ان الايمان الروحي أو ما نسميه اليوم بالضمير الداخلي للفرد يعد ابرز موجه للإنسان واقواها في حين ان الاهواء لا تأتي متناغمة مع حقيقة الانسانية قال تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [29]؛لان الهوى أو الرغبة العابرة تكون غير مقيدة بوازع ديني أو روحي سماوي، بل تكون متبعة لأهواء إنسانية يحتمل دخول الخطأ عليها، لذا فان الإيمان بالله وتسليم الأمر اليه هو انجح وسيلة لتقويم الإنسان ضد ما يعترضه من مخاطر تهدد سلوك الإنسانية جمعاء.

المطلب الخامس : القيم الاسلامية للخطاب الصوفي في مواجهة التعصب والتطرف

يجب أن تقوم مناهج الخطاب الصوفي، على عدة مرتكزات بينها القرآن العظيم والسنة النبوية، ويمكن الاهتداء بما أكده الإسلام لأتباعه فيما يأتي:

إن قيم الإسلام قادرة على مواجهة العنف والتطرف فهي تهتم بالسلم العام، وتدعو إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، قال تعالى ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[30] كما أنها تدعو إلى عدم إثارة الحقد والكراهية قال تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ [31]كما أنها حال الحرب تحافظ على أمن المحايدين قال تعالى ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ [32]كما أنها تدعو إلى حسن الجوار، وترك المبادرة بالشر، قال تعالى ﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا﴾[33] كما أنها تأمر بعدم التعرض للمدنيين حال الحرب قال تعالى ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾[34]

إن قيم الاسلام المعتدلة تؤمن بتعدد الحضارات وتنوع الثقافات، وتقرها، وترسخ الإيمان بذلك في قلوب المسلمين، والسيرة العطرة لرسول الله وصحبه الكرام، جسدت الإيمان بتعدد الحضارات وتنوع الثقافات، وتعاطت معها، واقعا عمليا و" التقاء الحضارات معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية، وهو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه، وقد تم دائما وأبدا وفق هذا القانون الحاكم التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام وبين ما هو خصوصية حضارية"[35]والخيار البديل لصدام الحضارات هو أن تتفاعل الحضارات الإنسانية بما يعود على الإنسان والبشرية بالخير والفائدة، والاتجاه نحو البناء والاستجابة الحضارية لتحديات الراهن، عكس نظرية (صدام الحضارات) التي تدفع الطرف المتسلح بإمكاناته العملية والمادية لممارسة الهيمنة ونفي الآخر والسيطرة على مقدراته وثرواته تحت دعوى أن نزاعات العالم القادمة سيتحكم فيها

العامل الحضاري الفكري، إن قيم الإسلام ترسخ في قلوب المسلمين"أن الانعزال والتقوقع والانغلاق على الذات في عالم اليوم الذي تحول إلى قرية صغيرة بحكم التطور التقني الهائل في تكنولوجيا الاتصال أمر مستحيل لان الانسان خُلق اجتماعيا بطبعه لا محالة، كما أن الانسياق وراء الدعوة إلى حضارة عالمية واحدة هو بحد ذاته عملية تكريس لهيمنة الحضارة الكاسحة وهو طريق التبعية الحضارية الذي يفقد كل أمة خصوصيتها الحضارية ويحولها إلى مجرد هامش للحضارة الكاسحة"[36] ، وهو امر لا يعتقد به الا دعاة العولمة والامركة.

وقد أكد الإسلام لأتباعه أن التعدد والتنوع من سنن الله في كونه، وأن جوهر رسالته عدم إكراه الناس على دين واحد فالتعدد سنة من سنن الله تعالى: في الكون، قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾[37]. وقال أيضا ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[38]وقال أيضا ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[39]وقال أيضا:﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾[40]

إن قيم الإسلام لاتعادي الأديان السماوية وقد نص القرآن الكريم على أن الإيمان بالرسل والكتب السماوية الصحيحة شرط كمال إيمان المسلم، في قوله . تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله﴾ [41] بيد أنه لا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساسا راسخا لعلاقة المسلم مع غير المسلم على أنه انفلات أو استعداد للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين، كالدعوات التي اطلقت تحت مظلة حوار التقارب وحوار توحيد الاديان، فهذا التسامح لا يلغي الفارق والاختلاف ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس، فالتأكيد على الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها"[42].

إن دعوة الإسلام مرتكزة على تنوع الشعوب والتعدد المجتمعي، ولا سبيل إلى الالتقاء إلا بالتعارف والتعاون وقد جاء ذلك في قوله : . تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[43]

إن دعوة الإسلام وقيمه ترتكز على التسامح، والحوار لا الصدام والصراع والتقاتل، والتعايش لا التناحر، وقد جاءت نصوص القرآن والسنة المطهرة معلنة عن ذلك بكل وضوح من ذلك،فقد أمر الله نبيه بالعفو والصفح عن غير المؤمنين به قال الله تعالى ﴿وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾[44] ، كما أمره بالصفح الجميل ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾[45] ويقول : ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض على الجاهلين﴾[46] وقوله . تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون ﴾[47].

ومن قيم الإسلام ثقافة التعايش التي أكد الإسلام عليها بقاء الآثار والكنائس والمعابد حتى ما يخص أتباع الديانات غير السماوية، وذلك في البلاد التي فتحها المسلمون على مر التاريخ، في كل البلاد، ومن يفعل غير ذلك من داعش وغيرها يبرأ منه الإسلام، وهو ناتج عن فهم مغلوط مشوه عن الإسلام، أو فهم سطحي للتدين وتقييد الايمان بالأفعال دون الايمان القلبي، وهذا ناتج عن القراءة القشرية للنص الديني دون فهم حيثياته ومآلاته.

إن الإسلام ومن خلال خطابه الصوفي لا يحمل عداء للعقائد الأخرى بقدر ما يحمل قضية نشر الطمأنينة والسلام ومعرفة الله حق المعرفة والابتعاد عن الشرك واتيان الموبقات، إنه يدين العنف والإرهاب، إن الناس جميعا قد أوجدهم الله من نفس واحدة، والاختلاف في الافكار من طبيعة البشر، والعقائد لاتباع ولا تشترى، ولا إكراه على العقائد، وإن الاختلاف لا يمنع التعاون ولا التعارف، إن جميع الأديان السماوية اتفقت على أمرين إخلاص العبادة لله وحده والتحلي بمكارم الأخلاق، ولم يختلف أحد على أهمية الكلمة الطيبة في حياتنا جميعا[48].

إن قيم الإسلام تدعونا جميعا إلى بناء السلام بين بني البشر جميعا إن المشتركات بين بني الإنسان كبيرة فلنستثمرها في وقف شلالات الدماء، فلنتعاون جميعا على تنقية الشعور الديني من الضغائن والأحقاد التي كلفت البشرية ثمنا باهظا ومرهقا، فلنتكاتف جميعا لمواجهة العنف، والجوع، والفقر، ولنتعاون معا لإسعاد البشرية، ولنجعل من السلم المجتمعي بوابة للإسلام النقي الصافي وعلى مراد الله تعالى.

خاتمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين.. وبعد.

فقد دعاني واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ان اكتب في هذا الامر فما وضعناه امام اللجنة العلمية للمؤتمر هي في الحقيقة خطوة، ننتهزها فرصة ذهبية للمذاكرة، والتذكير بأهمية الدراسات التي تعالج واقع الأمة، وتضع اليد على الدواء الناجع والذي ينعكس بصورة ايجابية في بناء العقلية الانسانية، عقلية ترفض التطرف والارهاب وتؤمن بان الافضلية لدى الله هي بما يقدمه احدنا للمجتمع ولنفسه من خير ونفع.

واهمية هذا الموضوع رأيناها تجلت في المنهج القويم الذي اشرنا اليه حفاظاً على التوجهات الروحية من الوقوع في الشطط والزلل نظراً لتجارب المسلمين التي كثرت وتعددت وتنوعت واختلفت في السير منهجاً وموضوعاً فدب الخصام واستشرى الانقسام لأنهم لم ينظروا في هذا الموضوع بالمنهج الذي تقتضيه طبيعته، بل كان كل يحاول ان يجعله في المنهج الذي يخدم اتجاهاته الفكرية ليصل به إلى النتيجة التي قررها منذ البداية.

لهذا فإن الحاجة إلى الإيمان ضرورية وما يستتبعه من تربية روحية صوفية، فهو لا يغني عنه أي شيء، ولا أي نوع من أنواع العلم والثقافة، ولا التقدم الحضاري بأي شكل من الأشكال، بل حتى الرقي المادي ورغد العيش والرفاهية المادية لا تتحقق حقيقةً إلا بالإيمان بالله وبالالتجاء إلى الله، عبادةً واستعانة؛ ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى

آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[49] ويقول الله تبارك وتعالى: ((وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا))[50] والله تبارك وتعالى ذكر في آي كثيرة ما يدل على أن مسألة الرزق والطمأنينة، والعيش الهنيء الكريم لا يمكن أن يكون إلا بالإيمان بالله، وباللجوء إليه، كما قال نبي الله نوح لقومه: ((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا))[51].

فيتبدل الحال من الفقر والجدب والقحط إلى الرغد والنعيم والحياة الكريمة، وذلك إذا اصطفانا الله عز وجل ورجعنا وتبنا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.إذاً: السر هو في الإيمان الذي يفجر الطاقات، وليس مجرد العبقرية التي في الأشخاص وإن الإيمان يهذب النفوس، ويربيها، فليس هناك للانتصار زهو ولا خيلاء ولا كبرياء، إنما هو السجود لله عز وجل والاتعاظ والاعتبار بما جعل الله من عقوبة لمن عصاه ولمن خالف أمره واتبع غير سبيله.

وخلاصة هذا: أنه إذا قام كل فرد بما عليه من الواجبات أثمر ذلك قوة في صلة أفراد المجتمع بربهم، وفي الرابطة القائمة بينهم فأصبح المجتمع قوياً متماسكاً صعباً على المفسدين.وإذا ضيعت الحقوق حصل التذمر والخصام والعداوة، فتضعف الرابطة، ويسهل على الخصوم اقتحام حصون المجتمع والتحريش بين المسلمين، وإثارة الأحقاد وبذر بذور الشر، كما أن واقع المجتمع المسلم الناتج عن ذلك يضعف ثقة بعض أفراده –ممن قل حظهم من العلم– بنظام الإسلام وتعاليمه، فيحمله ذلك على تطلب البدائل في مستنقعات الشرق أو الغرب وأفكارهم الفلسفية أو أفكارهم المصدرة إلى العالم الإسلامي بقصد جلب العقول والقلوب إلى توجهات وآراء منحرفة تبتعد بهم عن السلوك الإنساني ومفهوم الإنسانية .

وعليه اشرت عدة نتائج:

1. التصوف ليس فقط نظرية زهدية تقشفية، أو رؤية فرارية وانزوائية عن المجتمع وعن الواقع كما يعتقد الكثير، بل التصوف هو قبل كل شيء رؤية لله والإنسان والعالم.
2. الخطاب الصوفي هو الترجمة العملية الإجرائية لمقام الإحسان المذكور في القرآن الكريم والسنة المطهرة.
3. التربية الروحية الصوفية تكسر كل الحواجز وترفع كل عوائق الحوار والتفاهم بين الأديان والحضارات.
4. التربية الروحية ونتائجها على المشترك الانساني ليس معناه الإيمان بتكافؤ الأديان الناسخة والمنسوخة.
5. يجب أن يكون خطابنا للآخر مرتكزا على عرض صور السلم الاجتماعي لغير المسلمين في السيرة النبوية والشريعة الإسلامية.
6. أن تنوع الانتماءات والأعراق والديانات لم يقف عائقا في وجه بناء الوطن، بل كان تحقيق السلم الاجتماعي سبيلا إلى توجيه أطياف مجتمع المدينة إلى الذود عن الوطن، وصيانة خيراته.

7. يجب أن تعاد كتابة مناهج التربية الإسلامية بلغة معاصرة تلائم مستجدات الواقع من حولنا وتتواءم مع التحديات المعاصرة.

الهوامش:

[1]-سورة الضحى :الآية 7 -10.

2- الخطاب الصوفي وإشكاليته التواصلية ، الطريقة التجانية نموذجا، الساسي عمامرة، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة، كلية الآداب جامعة محمد خيضر ببسكرة، ص34.

3- جواد المرابط، الأمير عبد القادر والتصوف، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، ص 46

4- مجلة مسالك، العدد الثاني، جوان جويلية 1998، ص 21.

5-سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق : محمد عبد القادر عطا (مكتبة دار الباز – مكة المكرمة ، 1414 – 1994)5/.264

6-مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد الحراني، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (رئاسة الحرمين الشريفين، طبع بإدارة المساحة العسكرية، القاهرة، 1404) 14/119.

7- الإيمان بالله تعالى، علي محمد الصلابي ، المكتبة الإسلامية الجامعة ص174.

8-تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا، (ط الشعب، ط بدون، ت بدون) 6/532.

9-تفسير القرآن العظيم 1/195.

10-شفاء السائل وتهذيب المسائل، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر سوريا، الطبعة الأولى ،1417هـ ،1996م، ص .33

11- فوائد قرآنية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط الأولى، 1389، ص61.

12- سورة آل عمران الآية 79.

13- الفوائد لابن القيم ،(دار النفائس، بيروت ط السابعة 1406هـ)ص.43

14- سورة البقرة: الآية .256

15- فهم لسان نظرية التجلي صعب جِّدً على غير المتخصصين فيها لأّنّ خطابها أوّلاً هو خطاب مُرمّزٌ مُشفّرٌ واستتاري، وثانيًا هو يقع خارج دائرة العقل الأرسطي المحكوم بمبدأ الثالث المرفوع.

16-اثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله عبد الرحمن الجربوع، المملكة العربية السعودية، عمادة البحث العلمي، ط1 2003م، ص258.

17-سورة الأنعام: الآية 55

18-سورة الأعراف:201 الآية ، .202

19-سورة الأعراف: الآية 202.

20- سورة الطلاق: الآية 2، 3

21-سورة **البقرة**: الآية 217

22-سورة **إبراهيم**: الآية .27

23-السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، مصدر الكتاب : موقع المؤلف على الإنترنت،http://www.slaaby.com (1 / 373).

24-سورة الحجرات: الآية 10

25- المجتمع الإسلامي، أهدافه ودعائمه أوضاعه وخصائصه، في ضوء الكتاب والسنة، د.مصطفى عبد الواحد ص44، 45 مطبعة دار التأليف، مصر، ط: الأولى 1389هـ.

26- سورة الحجرات: الآية 10

27- تفسير القرآن العظيم،8/355..

28-سورة الأنفال: الآية 46.

29-سورة القصص: الآية 50
30-سورة العنكبوت الآية 46
31-سورة الأنعام الآية 108
32-سورة النساء الآية 90
33-سورة المائدة الآية 2
34-سورة البقرة الآية .190
35-الغزو الفكري وهم أم حقيقة د محمد عمارة ص 205 بتصرف، ط الأزهر 1988م.
36- مستقبل العالم الإسلامي ص 144 مركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا العدد 9 لسنة 1993م.
37-سورة المائدة الآية 48
38- سورة هود:الاية 118،119.
39-سورة البقرة: الاية256.
40- سورة الغاشية: الآية 21،22.
41- سورة البقرة: الاية 285 .
42- عبد العزيز التويجري، الأمة الإسلامية ومواجهة التحدي الحضاري، ص 74.
43-سورة الحجرات: الاية 13.
44-سورة الزخرف88،89
45-سورة الحجر : الآية 85
46-سورة الأعراف : الآية 199
47-سورة الجاثية: الآية .14
48- السلم الأهلي والأمن الاجتماعي من منظور الإسلام، مقال لأحمد مبارك سالم منشور بجريدة النبأ 2013/11/20م
49-سورة الأعراف: الآية 96.
50-سورة الجن: الآية .16
51-سورة نوح:الآية10-12.

قائمة المصادر والمراجع

بعد القران الكريم

1. الأمة الإسلامية ومواجهة التحدي الحضاري، عبد العزيز التويجري.
2. تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا، (ط الشعب، ط بدون، ت بدون).
3. اثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله عبد الرحمن الجربوع، المملكة العربية السعودية، عمادة البحث العلمي، ط1 2003م.
4. الإيمان بالله تعالى، علي محمد الصلابي ، المكتبة الإسلامية الجامعة.
5. الخطاب الصوفي وإشكاليته التواصلية ، الطريقة التجانية نموذجا، الساسي عمامرة، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة، كلية الآداب جامعة محمد خيضر ببسكرة.
6. جواد المرابط، الأمير عبد القادر والتصوف، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
7. السلم الأهلي والأمن الاجتماعي من منظور الإسلام، مقال لأحمد مبارك سالم منشور بجريدة النبأ .

8. سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق : محمد عبد القادر عطا (مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ، 1414 – 1994).
9. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، مصدر الكتاب : موقع المؤلف على الإنترنت،http://www.slaaby.com
10. عبد الرحمن ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر سوريا، الطبعة الأولى ،1417هـ ،1996م
11. الغزو الفكري وهم أم حقيقة د محمد عمارة بتصرف، ط الأزهر 1988م.
12. فوائد قرآنية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي،(المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط الأولى، 1389).
13. الفوائد لابن القيم ،(دار النفائس، بيروت ط السابعة 1406هـ)
14. المجتمع الإسلامي، أهدافه ودعائمه أوضاعه وخصائصه، في ضوء الكتاب والسنة، د.مصطفى عبد الواحد مطبعة دار التأليف، مصر، ط: الأولى 1389هـ.
15. مجلة مسالك، العدد الثاني، جوان جويلية 1998.
16. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد الحراني، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (رئاسة الحرمين الشريفين، طبع بإدارة المساحة العسكرية، القاهرة، 1404) .
17. مستقبل العالم الإسلامي مركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا العدد 9 لسنة 1993م.